

في أفق السياسة العالمية

الحركة الوطنية في ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية في إيطاليا وأثيوبيا في سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبي الصحف الأمريكية على مسولينى حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوي من أثيوبيا لإيطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التي كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمى مسولينى محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزرابة وأجابه قائلاً : « ومن قال لك إنى من هواة جمع الصحارى في العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفى إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذى أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هى إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التي تمتد في شمال إفريقيا من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء في هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة في هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التي تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها في فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالى إلى الرعى وتربية الماشية . ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالي إفريقيا قد برموا بحياة الفاقة والشدة والاحمال التي تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا من الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر لعلهم واجدون فيه وعلى سواحلهم رزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا في سلك قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الاسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا في مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التي تمر عبابه ، ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية

والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم وبيعوا بيع الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً في شمال إفريقيا منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شيء حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول في تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحري التركي أول من أقام للقرصنة دولة في طرابلس في منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين سنة ١٥٥٣ وأنبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبني السفن ويسلحها ويحصن القلاع والمرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولاً بحرياً من سفن القرصنة أنزل به الرعب في قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوروبا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدي رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التي كانوا يستولون عليها . وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون في سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرمنلي حكومة البلاد فجعلها وراثية في أسرته منذ سنة ١٧١١ معتمداً في موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال القرصنة ، وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التي كانت تمر في شرقي البحر المتوسط ، فكانت حينئذ تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — في معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سیرت الولايات المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة في أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكيون حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الإقامه في درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن اقتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال . وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم في تقدير الضريبة التي يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلي على الساحل من غربي ميناء طرابلس إلى بنغازي ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كأحدى قواعدها في البحر المتوسط .

أما القبائل التي كانت تقيم في داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم ، وظلت مشغولة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيّما كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا في أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولايتها في البلقان وفي الشرق ، طمعت الدول الأوربية في ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبها بعد عشرين عاماً ثورة الاغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر في سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً في كسر شوكة القراصنة في شرقي البحر المتوسط وإضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملاً قوياً في تنبيه الباب العالي إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا في شمالي إفريقيا . لذلك انتهز السلطان محمود الثاني فرصة تفاقم النزاع في طرابلس بين الطالبين بالحكم من أسرة القرماني فأرسل في سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها وال من قبله لتسلم الحكم في ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأما أحست بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع في السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالي إليها بإنشاء المدارس ، وإصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد في وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسليحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس في سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر في سنة ١٨٨٢ لم يبق شك في أن إيطاليا تعد عدتها للاتقضا على طرابلس لتحوز نصيبها من الغنيمة وهي البلاد التي بقيت في شمالي إفريقيا بل في إفريقيا كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألماني قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالي إفريقيا ليوقع الشقاق بينها وبين المجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التي كانت لها مطامع في تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشتري سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرّاً على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا في مراکش . وعلى ذلك

باتت إيطاليا تتربقّب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة في سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت في طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨ وإقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، وإثارة الشعور الاسلامي في العالم أجمع حول الخلافة العثمانية ضد أوروبا . وكان وليم الثاني إمبراطور ألمانيا إذ ذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ، وبمعونتها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفي مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا في طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التي سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا في سبتمبر سنة ١٩١١ بإرسال إنذار نهائي إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الإنذار . ولم يجد الأسطول الإيطالي صعوبة تذكر في إخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازي ودرنه ، ولكن القوات الإيطالية لم تجرؤ على التوغّل في الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووجدوا صفوف الأهالي وقادوهم ضد الطليان كما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا في أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحري في شرقي البحر المتوسط ، وتحترق المضايق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأذرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفتها النمسا وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتي عشرة أو الدوديكانيز . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاء للرأي العام الإيطالي من جهة وخوفاً من اكفهار الجوّ الدولي من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة . وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه بإجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا في أوشى لوزان بسويسرا في أكتوبر سنة ١٩١٢ ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسمياً أن يداروا خجلهم أمام الأهالي ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم في إعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد حولوا الأهالي حتى التمتع بالاستقلال الذاتي . وكان هذا التصريح

من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين في حركتهم فصمموها على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى فضل الحركة السنوسية التي جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيته إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وهي الدول التي كانت تشترك مصالحها في الصحراء الكبرى والسودان الغربي .

ولم تكن الحركة السنوسية في مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التي تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبد الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت عن طريقين : الأول مرا كز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد علي السنوسي ، الذي استقر به المقام في بنغازي سنة ١٨٥١ ، كثيراً من الزوايا في مختلف البقاع لتكون مرا كز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالي ويقضي بينهم في منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بالعمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل ما يفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير ، فكان نظام السنوسيين في مراكزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو ما يطلق عليه الغربيون *imperium in imperia* .

أما الطريق الثاني الذي زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحويلها في عهد السيد المهدي السنوسي الذي خلف أباه في سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية في بعض المناطق . ولا شك في أن ضعف تركيا في ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لا في برقة وطرابلس فحسب بل كذلك في الصحراء الغربية كلها . وفي السودان الغربي ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين بين بلاد المغرب إلى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فإن السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة في أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسي الكبير من بنغازي إلى واحة الجغبوب جنوبي سيوه الغربي بمقدار ٣٠ ميلاً ، وفي سنة ١٨٩٤ ترك المهدي السنوسي جغبوب إلى واحة

الكفرة التي تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبى بنغازى . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم فى أعلى السودان واتفاقهم مع سلطان وادى شرق بحيرة تشاد سبباً فى اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين فى سنة ١٩٠٠ . وقد انهزم السنوسيون ومات المهدي السنوسى سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى فى الحرب وأساليب القتال الحديثة . وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عملياً للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التى كانت تنتظرهم . فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم فى الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطليانى ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمى نارها وخاصة فى إقليم برقة الذى كانت لهم فيه السطوة والعصبية . وكان الأتراك حتى بعد عقد معاهدة أوشى لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين فى مكائهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالى فى طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراتة عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانياً عينته قائداً عاماً على شمالى إفريقيا ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانئ وأهمها طرابلس وحمص . ولكن سرعان ما دب الخلاف فى صفوف المقاومين ؛ إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة — يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز فى مصر من ناحية حدودها الغربية على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الادريسى بن المهدي السنوسى وخليفته الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر — يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم فى السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندي تركى وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك في حملة غاليبولي ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم في مرسى مطروح . وتقابل الفريقان في عدة معارك أهمها في سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضالة عددهم واستعداداتهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة في مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة . أما السنوسيون فقد احتفظوا بالوحدات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الوحدات سنة ١٩١٧ . وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضل شأنهم ، واضطر السيد الشريف السنوسي إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسي وهو الزعيم الحالي ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا في حال لا تسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الامارة أيضاً بقلب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق في سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس في سنة ١٩٢٢ بدعونه لزعامتهم أيضاً ؛ وبذلك جمع في شخصه وحدة برقة وطرابلس ، وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت في النهاية وأن زعيما وطنيا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد في كفاحها ضد الغاصب الأجنبي . ولكن ما كادت هذه الآمال تلمع في الأفق حتى جدت عوامل عجلت بنجية الأمل ؛ فقد عارضت إيطاليا في حركة البيعة التي جاء بها الطرابلسيون للسنوسي ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالايقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسي أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقي متصلاً بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولاً ثم بواسطة الزعيم عمر المختار الذي قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلاً حصيناً لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة في سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعماء مسوليني قد وليت أمر إيطاليا في خريف سنة ١٩٢٢ وفي مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط وإحياء مجد

الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها ولايتها القديمة ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم في هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذرائعهم التي كان مسولينى يباهى بها أم أوربا جميعاً . لذلك نشط الايطاليون في العمل على استتباب النظام وإخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيّقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية في إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة في المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك في سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشى الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق في وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلومتر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتزيانى حاكماً عاماً على برقة وطرابلس ، وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائياً بترغيب طائفة من السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين فى الطائرات والتحليق بهم فى الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم . وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلومتر . وفى هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيّدوا دورهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة فى العهد الأخير ؛ إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية فى معركة دامت بضع ساعات تمكن فى أثناءها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات فى الصحراء بيممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وما خف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخطون ذاهلين من أثر الصدمة ناكسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنبله

ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة في مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمرين .

وكان احتلال الكفرة كالمصاعقة نزلت على رؤوس المجاهدين ، فأيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا في وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية ، فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ وقع السيد عمر أسيراً في أيدي الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكرياً ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثمًا لا يزال عاره يلطخ صفحة استعارهم إلى اليوم . وبموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة في ليبيا . وأخذ الناس يتناقلون في جميع أنحاء العالم العربى أحداث البطولة التي اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتي تمثلت في جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها ؛ فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس . وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ؛ فقد انتشر عقد المجاهدين حقاً ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية في كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان في بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحي الحكم الفاشي في نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجراثيمة الفساد والانحلال التي يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وتترقى في مدارج المدنية .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا في شمالى إفريقيا ، وتقدم السيد إدريس السنوسى وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعى برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسناً

في المعارك التي تتابعت جيئةً وذهاباً فوق أديم أرضهم ، فتارةً كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونةً كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزّلوا بهم سوء العقاب .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غرباً حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز في ليبيا وبدءوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل في برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم في القرار الذي أصدره في أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمر السنوسى زعيماً لهم ، وبأن له وحده أن يتكلم بلسانهم في مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو قرنيقية بأية حال ولكنها لم تصرح بشئ عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد ؛ فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا في حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها في البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شؤون الشرق الأوسط من كسب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافساً بين الدول وأكثرها خطراً . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فإن روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر في ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطأً وهمياً ؛ فقد ذلت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فألغى مسافة الصحراء رماناً ومكاناً ، وأصبح جديها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك أموراً لا يحسن بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء

عنصراً مهماً في جسم السياسة ، العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التي اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بإيطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويشب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها في البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكباش » الحربية التي دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة . من أجل ذلك كان في مقدمة ما طلبته مصر في مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس في صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت . والناس في برقة شديديو التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما في طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون في البلاد ، والانجليز لا يزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث المسائل الإقليمية الخاصة بمستعمرات إيطاليا إلى ما بعد انقضاء عام على توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وقد وقعت المعاهدة في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ .

ولا تزال إيطاليا تطمح في أن يوجد عليها الحلفاء بشيء في طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم في المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستماله لها إلى جانب كتلة الدول الغربية . ولكن يبدو أن إنجلترا تريد أن تبقى مضطلة بسياسة البلاد العليا سواء كان ذلك بطريق الوصاية أو بالاتفاق مع حكومة وطنية تتولى أمر البلاد بمعاونة مستشارين من الانجليز ، ويكون شأن ليبيا حينذاك كشأن مملكة شرق الأردن .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إيطاليا إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعهم الضياع والمزارع من الأراضي التي صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضي الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الإيطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضي بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية في ليبيا تهمل الاقتصاد العام

للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها في سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب في حاجة شديدة إلى رءوس الأموال وإلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهي الفقيرة في المعادن والزراعة . ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمري تلك الأراضي . ولكن ما كادت تنتهي الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم في إيطاليا وسئموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم في ليبيا ، فبدءوا ينسلون إليها سرّاً وعملانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » . وسيؤدي وجودهم حتماً إلى مشكلة اجتماعية خطيرة . فلعل بريطانيا وهي القائمة بشؤون الحكومة مؤقتاً أن تبادر بأخذ الحيطة حتى لا يشهد العالم حركة صهيونية جديدة تقوم في ليبيا . وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومي يدعوهم في أثناء فترة هذا العام إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمي إلى إعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم . ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الإيطالي في جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربي ، وقد حملوا معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال في ظل الجامعة العربية . وإنهم وأيم الحق بهذا الجديرون .

محمد رفعت